١-القلق

في حضن النيل بالقرب من رأس "الدلتا بمصر" ، تقع قرية "كفر الهوى"على بعد ما يقرب من ٥٢ كيلو متراً شمال القاهرة أو يزيد، المباني فيها غير منتظمة، وكل بيت يختلف عن البيت الذي يجاوره، فلا يوجد تناسق معماري، على عكس ماضيها، والذي تميزت فيه رغم بدائيتها بنظام معماري موحد، حيث كانت كل البيوت بالطوب اللبن، وأبوابها سميكة من ضلفة واحدة، وفوق السطح غرفتان من الطين، يطلقون عليها "المقاعد" وبعض الصوامع الطينية لتخزين الحبوب، وحظيرة للطيور، وأحيانا برج للحمام، فيما عدا منازل العُمد، وبعض الأعيان، فكانت من حسنها كالدرر بين النجوم.

أما الطباع فقد اختلفت هي الأخرى نحو الأسوأ، وأصبح الكثير من الناس في "كفر الهوى"يحركهم الهوى، فيتمايلون يسارًا ويمينًا كما القلائد أو الأجراس المعلقة في أعناق الأنعام، فيرفعون قدر هذا، ويخفضون منزلة ذاك حسب الهوى، وتأتي الأحداث الجديدة تمسح ما يسبقها من أحداث قديمة، وكأن شيئًا لم يكن، فلا يتعظ كثيرهم من الماضي، ولا يكترثون بالمستقبل، ويكررون في الحاضر أخطاء السابقين، مع اختلاف طفيف في بعض الشكل، والتفاصيل، وعادةً ما تتشابه تصرفات البشرفي القرى والنجوع في نحو أربعة آلاف قرية مصرية،فمعظم السلوكيات صارت كأنها نُسخ منسوخة كربونية طبق الأصل، شأنها في ذلك شأن الكثير من المدن.

كانت "حميدة"عجوز قرية "كفر الهوى"امرأة تتمتع بالفطنة، وقوة الحدس، وعندما تتكلم يجد المتلقي كلامها ممزوجًا بالحكمة، وخفة الظل، فلا يَمل النسوة، أو الرجال من حديثها، تارة تُداعب الأطفال، فأحبها كل الصغار

بالحي، وتارة تمازح البنات، وتنصحهم بالحفاظ على أنفسهن، حتى أصبحت أمًا لكل الفتيات من أبناء الجيران، أما النسوة فكن يلجأن إليها عند الخلاف مع أزواجهن، فتنصحهن بحسن العشير، فيستجبن، وتسدعي أزواجهن أحيانا إذا كانوا مخطئين، فتأمرهم بحسن المعاملة، فيكون رأيها بمنزلة رأي الأم الرؤوم، فلا يرفضونه، أحبها الكبير والصغير،أما هي فقد أحبت الجميع.

أما اليوم وهي تقف علي عتبة صيف عام ٢٠١٦م، فكانت تجلس بشرفة بيتها الفاخر العتيق، مغروسة في همومها، والقلق يكاد يقتلها، وتنتظربفارغ الصبر عودة ولدها"غريب"من القاهرة ، فقد ظهر الشفق الأحمر في قبة الفضاء،وعادت الطيور إلى أوكارها، وغطست بقايا قرص الشمس في السماء،وأنذرتها خيوط الظلام بنهاية النهار،وأقبل الليل البهيم، ولم يعد ولدها حتى الآن.

تذكرت أن"غريب"ولدها كان يأخذ عليها أنها شديدة الاعتقاد في كرامات بعض ساكني الأضرحة من الأموات ،وكان دائمًا ما يقول أن تلك من سمات بعض البشر،في أي مجتمع مغلق ومفتوح، فقد أصبح لكل فصيل من البشرضريحه الخاص، وكأن كل مجتمع يأبى إلّا أن يخدرنفسه، ويصنع الخرافة التي تناسبه، ورغم تقدم العلوم، برز في هذا الزمان وهم جديد يسيطرعلى العقول، فطغت الإشاعة على الحقيقة، فظهرفي عصرالتكنولوجيا،والسماوات المفتوحة الكثيرمن الأضرحة، بعضها فوق صفحات الإنترنت، والبعض الآخرعلى شاشات الفضائيات، وتطورتقديس الوهم،بأن تم تسويقه بأسلوب حديث.

وسط لهفة الانتظار المرير، تدور بعض أحداث الماضي في رأسها، وتتأرجح عواطفها بين أفكار متضاربة، فجأة وجدت نفسها تسترجع شريط الذكريات،وأيام الشباب، وكيف كانت تسحق بسحرها أعناق الرجال،فلكم تهافتواعليها صغارًا وكبارًا، عندما كانت بحسنها كالنورالذي يجذب الفراشات لتحترق بالنار،تارة تسحقهم بالتجاهل، وتارة تردهم خائبين إذا تقدموا لِخِطْبتها.

في الماضي وقت أن فاح أريج أنوثتها،لم تكن ترى في هذا العالم سوى"نادر"

ابن الشيخ "همام"،الذي أفلس أبوه بعد أن شب حريق كبير في شادر الأخشاب العتيق الذي شيده بالمركز، فالتهم كل رأس ماله، فعاد بعد أن خسر ثروته إلى قريته "كفر الهوى"فقيرًا بعد رغد العيش، وعاش مع أبيه يقتاتان من قطعة أرض صغيرة لا تزيد عن فدانٍ، ومن فرط الحزن لم يكمل الشيخ عامًا حتى رحل كمدا على تبدل الحال.

ظل"نادر" وحيدًا بالقرية، كانت يده الناعمة لا تصلح للفلاحة، ضربة يده بالفأس أثناء عزيق الأرض تثير سخرية الفلاحين، فقد كان نصفه ينحني ويستقيم مع كل ضربة فأس كأنه عود من الخيزران ينتصب ثم ينثني ،فتمتلئ يداه بفقاعات مائية ،تنفجر بسبب كثرة العمل، فيلقي الفأس بالأرض،ويصرخ يسب مهنة الفلاحة سبًا.فتنطلق الضحكات من المارة تهكماعليه،وكأنها موج متلاطم يطفو فوق أنهارٍ من السخرية، فيزداد "نادر" غيظًا.

كانت "حميدة"اليانعة للقطاف ابنة جاره تلازم أباها في الحقل طيلة النهار، تزرع، وتسقي،وتحصد،وترقب الفلاح الجديد بفضول شديد، فرقت لسوء حاله، وتحولت الشفقة عليه إلى حب، ثم إلى جام غضب تصبه على الساخرين منه، لأنهم لم يرحمواعزيزقوم ذل.

اقتربت منه تساعده، ومع الأيام جمعهما حب جارف فتزوجها، فأشعل ذلك الزواج غيرة الرجال، بأشد ما تكون الغيرة.

لم يبال الحبيبان بكيد الكائدين، وأفنت "حميدة"عمرها بجواره في فلاحة الأرض، وفي المنزل تدبر شؤونه، تعد الطعام، وتحلب الجاموسة، وتربي الدجاج،كانت شعلة نشاط، ولم يكدر صفوهما سوى تأخر الإنجاب، فطافت على كل العرافين، وبعد طول انتظار زارت ضريح الشيخ "يوسف الغريب"، ونذرت أن تسمي طفلها على اسمه، إذا أنجبت ذكرًا، وتصادف أن جاء الفرج بعد الزيارة، فجاءت أنباء الحمل السعيد ووضعت مولدها بعد تسعة أشهر من الزيارة، فأطلقت على مولودها الوحيد "غريب"

أما اليوم وبعد أن صعدت أمارات الشقاء بين تجاعيد وجهها، وطمس الزمن

معالم الجمال الذي طالما أشعل غرورها.اتكأت برأسها فوق كفيها، فلم تقو يداها على أن تحمل هذا الرأس الصغير،عندئذ شعرت كأنما تحمل جبالاً من الهم، فصرخت تُنادي على الأمل بعزم صوتها المبحوح، حتى يأتي الفرج بقدوم فلزة كبدها الغائب عن موعد الرجوع.

اشتعل خوفها عليه، فقد أفنت عمرها على تعليمه، وبعد تخرجه من كلية الزراعة سافر إلى هولندا للعمل في الإنتاج الحيواني. وعاد بعد سنوات محملاً بثمن غربته وشقائه، وبنى بيتًا كبيرًا واشترى قطعتين من الأراضي الزراعية، الأولى مساحتها فدان، وابتسم له الحظ عندما تحولت في التخطيط الجديد إلى أرض بناء، بعد شرائها بنصف عام، فأقام على مساحة ربع فدان منها مبنى كبيرًا، كنواة لمزرعة حديثة، لإنتاج الألبان، وضرب سورًا حول باقي المساحة،على أمل أن يقيم على بعضها مصنعًا للجبن مستقبلا، أما القطعة الثانية، فكانت قطعة أرض زراعية خصبة، مساحتها ثلاثة أفدنة، أقام على نصفها منحلاً حديثًا، لإنتاج العسل، وذاعت شهرته في أرجاء القاهرة بسبب جودة عسل مَنحله، فأصبح من كبار موردي العسل للفنادق السياحية الكبرى.

وبعد نجاح مشروع المنحل ألح عليه عمدة القرية"دياب النمر"بأن يشاركه في المزرعة، والتى كانت بجوار منزل العمدة مباشرة، وتقع بالشرق منه، أما الطريق المرصوف على مدخل القرية كان شمال المزرعة، ومن جهة الغرب ترعة تفصل المزرعة عن الأراضي الزراعية، وهذا التجاور هو سبب التعارف بينهما، وسعت زوجة العمدة"فاتن" تحثه على هذه الشراكة، في البداية رفض"غريب" بشدة، وقد شجعته أمه "حميدة"على ذلك الرفض، بيد أن ارتفاع تكاليف البناء والتجهيزات، وثمن المواشي، مع إلحاح العمدة، جعله يوافق على تلك الشراكة على مضض، وذلك على أن تكون حصة العمدة هي المواشي، ويتم تقاسم الأرباح مناصفة، مع بقاء ملكية الأرض والمباني لـ"غريب" حال فض الشراكة، وذلك حتى لا يبدد مابقي معه من مال حتى يستطيع إتمام الزوج من حبيبته.

كان "غريب"قد أنفق على حصته معظم ما عاد به من مال من هولندا، أملاً في إقامة المزرعة الحديثة على غرار مزارع أوروبا، وزودها بدوائر موسيقية،

لأنه عرف أن الدراسات قد أثبتت أن سماع المواشي للموسيقى، تزيد من إنتاجية الألبان.

هذا الأمر تسبب في إنفجار موجات شديدة من التهكم نالت من الفتى كما كانت تنال من أبيه بالأمس البعيد، وتصدعت هيبة العمدة فنعته الفلاحون بالجنون، وكل ما تخشاه "حميدة" أن يتحول العمدة إلى عدو لدود ينال من ولدها إذا فشل المشروع.

ما يزعجها، ويؤكد هواجسها، أن الخفير "شفيق" قررأن يسمع جاموسته الموسيقى أثناء الحليب حتى يزداد لبنها، كما سمع من "غريب" وهو يركب الدوائر الموسيقية بمزرعته، كان "شفيق"رجلاً سمينًا، وذو صوت جميل عرف عنه حفظه للتواشيح الدينية كعادة شبّ عليها منذ الصغر، بيد أنه حاد الطبع، وبطيء الفهم.

ذهب لأخته زوجة الشاويش "هنداوي" عازف فرقة الموسيقات العسكرية، فاستعار منها آلة نفخ نحاسية من أغلظ آلات النفخ صوتًا،على أمل أن يزداد اللبن أثناء الحليب، وكانت زوجته"شفيقة"ابنة"شفعات" حارسة ضريح الشيخ "يوسف الغريب" مثله، ودوائر الفهم لديها شبه مغلقة، كانت طويلة فارعة الطول كما الزرافة، وسمينة كما الفيل من كثرة التهام الطعام، وفي المساء، أثناء قيامها بحلب وجبة اللبن، وقف "شفيق"على باب "الزريبة"ومد آلة النفخ النحاسية بالقرب من أُذن الجاموسة، وغرس فوهتها في فمه، فسقطت بين شعر شاربه الذي يشبه في كثافته فرشة الورنيش السوداء، واستجمع قواه، وأخذ شهيقًا كأنه شفاط كهربائي، ودفع بالهواء جملة واحدة في جوف الآلة، فخرج صوت غليظ مُنفر كأنه القرع بالمطارق فوق النحاس، فقفزت الجاموسة فزعًا من فورها، كأن ثعبان قد لدغها، فرفست "شفيقة"زوجته برجلها فشجت رأسها شجًا عميقًا، فسال منها الدم بغزارة كأنه يتدفق من شلال، فنقلوها على الفورمحمولة على الأعناق، وفاقدة للوعي إلى مستشفى القرية للعلاج.

لم يكن بالمستشفى سوى عامل هزيل ترك محل عمله وجلس على مقهى

بالقرب من باب المستشفى، حاول الحضور، رفعها مع آخرين على سرير متهالك في غرفة الاستقبال الصغيرة، فسقط بها السرير مهشمًا على الأرض، فصرخ العامل حزنًا علي السرير المحطم، لأنه عهدته، وأخذ يتمتم بعبارات تعكس مدى حنقه على مالحق بالعهدة من دمار دون أن يلقي بالاً لحال المريضة التي تصرخ من شدة الألم، وصرخ فيهم قائلا :

العامل: الطبيب غير موجود، هيا انصرفوا بها من هنا.

صرخت فيه أمها "شفعات"توبخه بسبب خواء المستشفى من الطبيب والممرضات، والعلاج، وراحت تصب جام غضبها عليه، وانحنت علي الأرض تملأ قبضة يدها بالتراب تسد به الجرح النازف برأس ابنتها، ثم أشارت لأولادها وزوجها فحملوها، ووضعوها فوق صندوق سيارة ربع نقل من الخلف، وصعدوا حوله، وذهبوا بها إلى عيادة خاصة بالقرية المجاورة، حيث قام الطبيب بتنظيف الجرح وخياطة رأسها.

انتشر الخبر بين أهل القرية انتشار النار في الهشيم، وتداوله الشباب على مواقع التواصل الاجتماعي كمادة للسخرية والتندر، فكانت الضحكات، والنكات تنال من العمدة و"غريب" في آن واحد، وما يقلق الأم على ولدها اليوم أن العمدة"دياب النمر"رجلُ حاد المزاج، وسريع الغضب، ولا يهاب الشر، وربما يدفعه الغضب، والسخرية من المشروع إلى إلحاق الأذى بوحيدها، وهذا سبب ذعرها.

أما حميدة فقد عُرف عن ولدها "غريب" صلابة الرأي، وحب المغامرة، وشدة الذكاء، فقد ورث عنها الحكمة والجمال، وعن أبيه طيبة القلب، وحب الخير، كان يميل إلى الطول، وجسده رياضي، مفتول العضلات، وبشرته خمرية اللون كبشرة جده لأبيه، وشعره ناعم شديد السمرة، أما عيونه واسعة النيني شديدة السواد، فوق مقلة شديدة البياض، كانت نظراته كالسهام تسحر النساء، وتخترق قلوبهن كما تغوص السهام في الأجساد، وصوته ذو نبرات جميلة مميزة، فلا يمل أحدُ من سماع حديثه.

في الوقت ذاته الذي تعيش أمه في نيران القلق، كان "غريب"يجلس في غرفة الاستقبال بفندق "ماريوت" بالقاهرة ينتظر شيكًا بحساب ما تم توريده من عسل خلال الشهر للفندق، كان مهمومًا، خوفًا من تعثر تجربة المزرعة الموسيقية بالقرية، وخاصة أن الموسيقى ليست هي العامل الرئيسي في زيادة إنتاجية الألبان، فالنظام الغذائي، والرعاية البيطرية، والنظافة، ونوع السلالة هم الفيصل في تحقيق النتائج.

ما يكدر صفوه أن العمدة لن يتفهم من الناحية العلمية أن لكل تجربة ثغرات يمكن سدها لاحقًا، ومع أنه شرح كل ذلك لشريكه، بيد أن حادثة "شفيقة" قلبت الأمور رأسًا على عقب، وتحول المشروع برمته إلى مجال فسيح للسخرية القاتلة.

نظر"غريب" بقلق نحوالهاتف المحمول الذي يحمله، وفتح صفحة القرية على"الفيس بوك"، فوجدها تعج بالتعليقات الساخرة، والمشاركات ممزوجة بصور مصممة على برنامج "الفوتوشوب" وكانت الصور كالتالي:صورة للعمدة يدق الساجات، و صورة لـ"شفيق" ينفخ في الآلة النحاسية، والحمير ترقص،وصورة لـ"غريب" يقرأ النوته الموسيقية أمام الجاموس الجالس على الكراسي يعزف الموسيقي بآلة الكامنجة. أما التعليقات كانت كالتالي :

- البشر بمصر تسمع "شعبان عبد الرحيم" وجاموس العمد يسمع "بتهوفن"
- العمدة يعزف الموسيقى للمواشي، ويكتب النوته الموسيقية للبقر.
- أم "غريب" تعزف العود للدجاج لزيادة عدد البيض.
- "غريب" يحلب اللبن على واحدة ونصف.

أغلق "غريب"صفحته على"الفيس بوك"، وأخذ نفسًا عميقاً لعله يهدأ لكن دون جدوى. اكتشف أن غريمه اللدود "سيف جاد" هو من يشعل مواقع التواصل الاجتماعي بهذه الصور الساخرة، لقد كان زميله بالمدرسة، ويغار منه

أشد ما تكون الغيرة، وفي الصغر كان يتعمد المشاجرة معه دون سبب، ويحيل عليه الأطفال، بيد أن كل ذلك كان ينتهي بالفشل بعد حين.

كان"سيف جاد" رغم قصره طويل الباع في الشر، ماكر يجيد تدبير الفخاخ، ويظهر خلاف ما يبطن، وبارع في استدراج الآخر حتى يتمكن من معرفة ما في جوفه، وبعد أن حصل على دبلوم التجارة بالكاد، عينه عمه في بنك التسليف الزراعي بالوساطة.

مع بداية ظهورالدش بالقرية أدمن مشاهدته، وبعد أن تطورت وسائل الاتصالات بظهور"الفيسبوك"أصبح من رواده، وشغله الشاغل ،فقد تعلم برامج الفوتوشوب، ليصنع الصورويركب بعضها على بعض، لينال من هذا مرة، أو يهاجم ذاك مرات، ومنذ حادثة إصابة "شفيقة" تفرغ للمكايدة غيرة وحسَدا.

وبعد أن عاد "غريب"من هولندا ونجحت بعض أفكاره، وجد "سيف جاد" ينتظره ليسخر منه حقدًا، ويرجع اشتعال هذا العداء ونموه،إلى أن جميلة القرية ومعشوقته المستعصية عليه"رجاء" قد أحبت "غريب" حبًا كبيرًا، وظلت تنتظره، وتعزف عن الرجال حتى عودته وهذا ما يشعل النار في صدره أكثر.

لم يفق "غريب" من أفكاره إلّا عندما حضر محاسب الفندق "سمير" وأعطى له شيكًا بثمن ما قام بتوريده من عسل، كان ذلك قرب السادسة مساءً، فهرول نحو الباب للخروج خوفًا على أمه من القلق، اتجه نحو السيارة كما السهم المارق من القوس، وقادها بسرعة جنونية. يرىد أن يقطع المسافة في لمح البصر.

كان طريق العودة شديد الزحام، والسيارات تحاول أن تسرع مندفعة، تحاول الخروج من حارة إلى حارة لعلها تختصر المسافة دون جدوى، خلّف الزحام فوضى، وتلوثًا، وضوضاءً خرجت عن نطاق السيطرة، وكان "غريب" ينظر من حوله فيرى أن الطرق قد عجزت عن استيعاب الكثافة المرورية، حتى أصبحت قيادة السيارة أو الحافلة مغامرة قاتلة، ولكنه تعايش كالسائقين مع فوضى الزحام.

في منتصف الطريق التصقت بـ "غريب" شاحنة نقل كبيرة من جهة اليسار دون أن يدري إلّا بنفسه محشورًا بينها وبين شاحنة أخرى باليمين، ضاقت المسافة بينهما حتى تأكد للجميع أنه حتما سيسحق تحت أحدهما، انطلق الصراخ من سيدة تقود سيارة خلفه، فسُمع صوت انفجار مروع مختلطً بعويل وبكاء.